تفسير ابن كثير

يقول تعالى منكرا على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد : { قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم } وقد استفيد من هذه الاية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ويدل عليه حديث جبريل E حين سأل عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان فترقى من الأعم إلى الأخص ثم للأخص منه وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه Bهما قال : أعطى رسول ا صلى ا عليه وسلّم رجالا ولم يعط رجلا منهم شيئا فقال سعد رضي ا تعالى عنه : يا رسول ا أعطيت فلانا وفلانا ولم تعط فلانا شيئا وهو مؤمن فقال النبي صلى ا عليه وسلّم : أو مسلم ؟ حتى أعادها سعد Bه ثلاثا والنبي صلى ا عليه وسلّم يقول : أو مسلم ؟ ثم قال النبي صلى ا عليه وسلّم : [إني لأعطي رجالا وأدع من هو أحب إلي منهم فلم أعطه شيئا مخافة أن يكبوا في النار على وجوههم] أخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري به فقد فرق النبي صلى ا عليه وسلّم بين المؤمن والمسلم فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام وقد قررنا ذلك بأدلته في أول شرح كتاب الإيمان من صحيح البخاري و الحمد والمنة ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلما ليس منافقا لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الاية ليسوا بمنافقين وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم فادعوا لأنفسهم مقاما أعلى مما وصلوا إليه فأدبوا في ذلك وهذا معنى قول ابن عباس Bهما وإبراهيم النخعي وقتادة واختاره ابن جرير وإنما قلنا هذا لأن البخاري C ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يظهرون الإيمان وليسوا كذلك .

وقد روي عن سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد أنهم قالوا في قوله تبارك وتعالى : { ولكن قولوا أسلمنا } أي استسلمنا خوف القتل والسبي قال مجاهد : نزلت في بني أسد بن خزيمة وقال قتادة : نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول ا صلى ا عليه وسلّم والصحيح الأول أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يحصل لهم بعد فأدبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا كما ذكر المنافقون في سورة براءة وإنما قيل لهؤلاء تأديبا : { قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم } أي لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد ثم قال تعالى : { وإن تطيعوا ا ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا } أي لا ينقصكم من أجوركم شيئا كقوله D : { وما ألتناهم من عملهم من شيء } وقوله تعالى : { إن ا غفور رحيم } أي لمن تاب إليه وأناب وقوله تعالى : { إنما المؤمنون }

أي إنما المؤمنون الكمل { الذين آمنوا با ورسوله ثم لم يرتابوا } أي لم يشكوا ولا تزلزلوا بل ثبتوا على حال واحدة هي التصديق المحض { وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل ا } أي وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة ا ورضوانه { أولئك هم الصادقون } أي في قولهم إذا قالوا إنهم مؤمنون لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين حدثنا عمرو بن الحارث عن أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد Bه قال : إن النبي صلى ا عليه وسلّم قال : [المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء : الذين آمنوا با ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل ا والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم والذي إذا أشرف على طمع تركه D] وقوله سبحانه وتعالى : { قل أتعلمون ا بدينكم } أي أتخبرونه بما في ضمائركم { وا يعلم ما في السموات وما في الأرض } أي لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر { وا بكل شيء عليم } ثم قال تعالى : { يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم } يعني الأعراب الذين يمنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول صلى ا عليه وسلّم يقول ا تعالى ردا عليهم : { قل لا تمنوا علي إسلامكم } فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم و المنة عليكم فيه { بل ا يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين } أي في دعواكم ذلك كما قال النبي صلى ا عليه وسلّم للأنصار يوم حنين : [يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم ا بي ؟ وكنتم متفرقين فألفكم ا بي ؟ وكنتم عالة فأغناكم ا بي ؟] كلما قال شيئا قالوا : ا ورسوله أمن .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري حدثنا يحيى بن سعيد الأموي عن محمد بن قيس عن أبي عون عن سعيد بن جبير عن ابن عباس Bهما قال : جاءت بنو أسد إلى رسول ا صلى ا عليه وسلّم فقالوا : يا رسول ا أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك فقال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : إن فقههم قليل وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم ونزلت هذه الاية { يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل ا يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين } ثم قال : لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه ولا نعلم روى أبو عون محمد بن عبيد ا عن سعيد بن جبير غير هذا الحديث ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات وبصره بأعمال المخلوقات فقال : { إن ا يعلم غيب السماوات والأرض وا بصير بما تعملون } آخر تفسير سورة الحجرات و الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة